

الفصل الرابع

يوم ميلادي

بالفعل لا أبالغ عندما أقول أنَّ روحي قد وُلدت ذلك اليوم وإنَّ كان عمري وقتها خمسين عاماً ”عمر الإنسان ليس في عدده وإنما في قيمته“ وكما قالت هيلين كيلر عندما قابلت معلمتها ”أنَّ سوليفان“ إنه يوم ميلاد روحي .

جاء اليوم التالي وأنا أنتظره بفارغ الصبر ومضت أحداثه تبعاً لا أتذكرها إلا كأشباح وجوه تروح وتحيء من حولي، وتفكيري كله منصب على مجيء معلمي وملهمي .

وصل أخيراً في نفس موعد الأمس فبادرته قائلاً ”لم تأخرت يا صديقي“

فضحك قائلاً ”إنَّ هذا هو أكبر دافع لي لأساعدك فأنت متلهف للمعرفة ، ومقبل على التغيير بكل جوارحك ووجدانك ، حتى أنك لم تلاحظ أنني قد أتيت في مواعيدي تماماً ولم أتأخر“



”إنَّ يومي حتى الآن لم يكن فيه سوى الانتظار“

”لقد وصلت قبل مواعيدي بخمس دقائق لكنني وقفتها أمام الحديقة التي في ساحة المستشفى ، فلقد رأيت البستاني يعمل فيها، وأحببت أن أراقبه لبعض الوقت . هل تريد رؤيته ؟ إنك تستطيع رؤيته من خلال النافذة التي في حجرتك . تعال سوف نتعلم منه كثيراً“

لم أفهم جملته الأخيرة هذه فهل سنتعلم من البستاني ما يفيدنا في حياتنا ؟ لكنني لم أشأ أن أراجع في ذلك وسرت معه حتى النافذة .

وقفنا نراقب البستاني وهو يقوم بالريِّ في كل أجزاء الحديقة لا يفعل غير ذلك وصاحبي يراقبه بعين ثاقبة وكأنه يرى أبعد من ذلك وكأنَّ في الموقف مشاهد دقيقة غير مرئية لا أستطيع رؤيتها أنا . ساد الصمت مدة قطعه قول أحمد : ” هل ترى ما يحدث ؟“

” أظن ذلك . عامل حديقة يروي أزهاره . أم أن الأمر غير ذلك، ولو كان .. فأخبرني بالله عليك لكي أسرع وأشتري نظارة لتصحيح بصري“

بابتسامة قال ” نعم إنه يروي أزهاره . ولكنَّ الأهم هو هل تلاحظ

كيف يرويها ؟ هل يروي جزءاً ويترك الآخر هل يبالغ في ترك الماء ليروي هنا ويقتصد هناك . إنه يرويها بالتساوي أليس كذلك ؟“
”أظن الأمر واضح . فإن الإسراف في ري الماء أو العكس يفسد أزهاره“

لمعت عيناه وهو ينظر إلي قائلاً ” رائع إنك عبقرى يا صديقى“
لم أفهم بالطبع ما يقصده بقوله عبقرى ، ولا أعرف إن كان مدحاً أو ذمّاً ، حيث إن أي طفل سيعرف ما قلته وقبل أن أسأله عن قصده قال
” انظر الآن ماذا يفعل البستاني“

وكان البستاني وقتها قد انتهى من ري الماء في حديقة المستشفى والتفت إلى مقص كان معه، وأمسكه ومضى يهذب بعض الأشجار والأزهار فيقطع من هذه ويُعدّل تلك ونحن نراه وصديقى ينظر إليه وكأنه يفعل الأعاجيب . وقال ” هل ترى ما يفعله الآن ؟ إنه يهذب أشجاره وأزهاره“

قلت ساخراً ” حقاً . إنه بستاني جيد يعرف ما يفعله“
”ليس هذا فقط وإنما هو ملهم جيد، إن جزءاً كبيراً من حياتنا



يتلخص فيما فعله ذلك البستاني الآن“

ضقت ذرعاً بما يحدث وكدت أصرخ معترضاً لكن تمالكت نفسي حتى ينتهي لكنه انقض على يدي ضاغطاً وهو يقول ” انظر الآن“

رأيت البستاني وقد ترك المقص ومضى يمشي بين أزهاره وكأنه يملئ عينه منها ومن جميل منظرها وتمتلئ نفسه رضا بما صنعه . وللحق فإن منظر الحديقة مبهج جداً وتناغم الأزهار باختلاف ألوانها يعطيها لمسة من جمال خرافي يريح العين والقلب معاً.

وعدنا للدخل وعاجلته بسؤال ” ها . متى سنبدأ ؟“

”لقد بدأنا بالفعل ، لقد أعطانا البستاني درساً لو فهمناه لانصلحت حياتنا“

”صديقي العزيز وما الذي رأينا غير مشهد عادي رأيناه مراراً وتكراراً . رجل يعمل في حديقة“

”ليس بهذه السطحية ، لقد رأيناه واقفاً وسط أزهاره يرويها بالماء، ثم يهذبها ، ثم دار حولها راضياً بما صنع ، معجباً باختلاف ألوانها وأشكالها“

”وماذا ترى في ذلك كله؟“

”قبل أن أوضح لك مقصدي؛ أود أن أسألك سؤالاً : هل ترى هذا البستاني عنده من القوة والفهم ما يجعله قادراً على زراعة تلك الأزهار؟“

”بالتأكيد .. أو على الأقل هذا ما يبدو عليه“

”سؤال آخر : هل تعتقد أنه اهتم بالأرض التي يزرع فيها تلك الأزهار“

”لو لم يهتم بها فكيف يأمل أن تعطيه النتيجة التي يتمناها؟“

”رائع جداً . إذن فذلك البستاني لو حاولنا أن نلخص ما رأيناه منه الآن يكون كما يلي :

أولاً : عنده قوة وفهم يمنحانه المقدرة على زراعة الأزهار في هذه الأرض .

ثانياً : يهتم بأرضه لكي تخرج له أفضل النتائج - فلو لم يفعل ، فكيف ينتظر ما يرضيه - .



ثالثاً : يروي الزرع بالتساوي حسب ما تحتاجه الأرض ويجعل ذلك قدر الحاجة فلا يسرف ولا يمتنع .

رابعاً : يهذب أزهاره وأشجاره باستخدام المقص .

خامساً : وأخيراً يتقبل وضع أزهاره ، راضياً عما فعل معها متقبلاً بل ومعجباً باختلاف ألوانها وأشكالها .

وهكذا المربي عليه أن يفعل كما فعل ذلك البستاني . أي :

- أن يهتم بنفسه بداية لكي يحسن الاهتمام بأبنائه .

- أن يهتم بزوجته ويرعاها أحسن الرعاية ، كما فعل البستاني واهتم بأرضه .

- ثم يفعل مع أبنائه كما فعل البستاني مع الأزهار ، وكان ذلك على ثلاث مراحل :

• **عطاء:** ويتمثل فيما يعطيه الآباء لأبنائهم مادياً ومعنوياً .

• **تهذيب:** ونعني به تهذيب الآباء لأبنائهم ليتحلوا بالخلق

الحسن.

• **تقبُّل:** لابد للآباء أن يتقبلوا شخصيات أبناءهم على اختلافها.

فقلت له : ” لقد لخصت ما رأيناه من كل جوانبه“

”مهلاً يا صديقي فقد تعلمنا الكثير من هذا البستاني، حتى أنني أكاد أجزم أنه قد أعطانا درساً في غاية البلاغة عن مجريات حياتنا، بل وفي كيفية تربية أبنائنا على وجه الخصوص“

مذهولاً نظرت إليه تعلوني الحيرة لكنه قال وهو ينظر إليّ :

فقط لو لاحظنا ما يحدث حولنا لأمكننا تغيير حياتنا



من قصيدة ”كن أباً ولا تتنح جانباً“

واحفظ وقتاً كي تحياه	عن كل حياتك كن مسئولاً
فاذكرها واشكر نعماه	قد أهداك الله نعماً
وفضلك على أهل سمّاه	ديناً عقلاً قلباً جسداً